حقيقة التحليل النفسي

الاستاذ موكلي [1]

نقلها الى العربية : حسن السلمان
مدير منطقة معارف البصرة

تمهيد

من دواعي العجب أن كثيرين ممن تهذبوا وتالوا قسطاً من العلوم يعيشون فهم حقيقة التحليل النفسي وسبب ذلك شكهم في النتائج المستحصلة منهُ وتحاملهم على ما يتضمن من ابحاث وإعراضهم عما يحتوي من نظريات دون أن يكلفوا أنفسهم عناء دراستها أو بحثها بحثاً بعيداً عن التحصب والتحزب. وما أقل اولئك الذين حبتهم الطبيعة عقولاً سمحة تمكنهم من دراسة نظريات تخالف ما نشأت عقولهم عليه وتباين ما تشربت نفوسهم به. دراسة سداها التسامح ولحمتها العدل. وفي نظرنا ان اللوم لا يقع على هؤلاء وحدهم بل يقع نصيب وافر منهُ على الباحثين النفسيين انفسهم. فاننا ان اجلنا الطرف في نواحي العلم الحديث لا نجد ناحية من نواحيه العديدة اكثر إبهاماً في التعبير أو أشد غموضاً في الاصطلاح مما هو في التحليل النفسي. ومما زاد في ذلك الابهام وهذا الغموض ان الباحثين بالغ بهم اعتدادهم بمعرفتهم حدَّ جعلهم لا يرتضون انتقاداً ولا يستحسنون لاعتراض. ومع انهُ ليس من السهل علينا أن نأتي في بحث موجز كهذا على جميع الاصول الأساسية للتحليل النفسي، فاننا سنسهل على القارىء الذي لم يتوسع في مباحث علم النفس إدراك ما لهذا العلم الجديد من شأن عظيم وتلمس فوائده العلمية الجمة. وسنقرب جهدنا وجهات نظر الباحثين النفسيين على كثرتها من فهمه وحسه

> التحليل النفسي اصطلاح كثيراً ما يجري على الالسن وغالباً ما يستعمله الكتاب والادباء دون ان يفقهوا المعنى الحقيقي له ودون ان يكلفوا انفسهم عناء معرفة الابحاث التي يتضمنها والنظريات التي تؤلف موضوعه. لهذه الاسباب رأى هذا البحث الذي اجازه منذ الاستاذ موكلي نظرة عجلى على تاريخ هذه الناحية المهمة في علم النفس ثم يتوسع في دراسة اصوله ونظرياته بطريقة تحليلية مبسطة

ليس التحليل النفسي الاَّ طريقة عملية

(١) محاضر في علم النفس والفلسفة في كلية مورلي بلندن

لدراسة صنوف معينة من الاضطرابات العقلية ولمعالجتها بوسائل نفسية بحتة . يرجع الفضل في وضع اصول هذا الفرع من علم النفس للدكتور سجموند فرويد . ويطلق التحليل النفسي ايضاً على النظرية الخاصة بطبيعة الجنس البشري تلك النظرية التي احكم ابتداعها بعد بحث طويل مضنٍ ذلك العالم النمساوي الكبير . وكذلك يطلق خطأً على النظريات المتباينة التي وضعها بعض تلاميذه اخص بالذكر منهم الدكتور يونج والدكتور الفرد ادلر وغيرهما ، الا اننا سنقتصر في بحثنا هذا على شرح طرق دراسة الاضطرابات العقلية وعلى تفهم نظرية الطبيعة البشرية

ان الاضطرابات العقلية صنفان أحدهما يشتمل على الاضطرابات العميقة الاثر في حياة الانسان العقلية وهي التي تتعذر معالجتها بالاساليب النفسية كالجنون والخبل والعته ، والصنف الآخر يشتمل على الاضطرابات العقلية التي تسهل معالجتها ومداواتها كالضعف العقلي والشذوذ النفسي البسيط . واكثر الانواع السائدة لهذا الشذوذ النفسي هي الشلل الهستيري وفقدان الحس والحركة الناشيء عن سبب غير عضوي

بدأ فرويد حياته العملية باحثاً فسيولوجيًّا اختص بدراسة الجهاز العصبي ومختلف امراضه ، ولكن ضيق ذات يده واحتياجه الى الكسب اليومي اضطراه لتوجيه جهوده شطر الطب متخذاً منهُ صناعة تدر عليه ما يسد بهِ عوزهُ : ومما لا شك فيهِ ان ابحاثه الاولى عن الجهاز العصبي خلقت فيهِ الميل لدراسة الاضطرابات العقلية بأنواعها المختلفة . ويلاحظ عليهِ انهُ تأثر في دراسته هذه بفكرتين احداهما أوحى اليهِ بها الباحث الفرنسي الكبير الاستاذ شاركو الاختصاصي في علم الاعصاب . وتتلخص فكرة هذا الباحث في أن الاضطرابات العقلية تكون دائماً مصحوبة باضطرابات تناسلية . والفكرة الاخرى مستمدة من ابحاث الدكتور جوزيف بروَر الذي اكتشف انهُ عندما ينوِّم امرأة ابتليت باضطراب عقلي ، تنويماً مغناطيسيًّا تستطيع تلك المرأة ان تتذكر حوادث جرت لها فيما مضى من حياتها ، وكان لها أثر فعال في نفسها . وعند ما يجعل المرأة تتذكر تلك الحوادث وهي في حالة اليقظة يتسنى له تخليصها مما كانت تشكو من اضطرابات . ومادمنا في سبيل ذكر التنويم المغناطيسي فلا بد من تعريفه تعريفاً شاملاً قبل الاسترسال في بحثه . ان التنويم المغناطيسي ظاهرة توقع المريض في شبه غيبوبة وتجعله طائعاً منقاداً لنصيب التنوم ينفذ أي أمر يأمرهُ به ، أو أي طلب يطلب منه تحقيقه

كان فرويد وبروَر صديقين حميمين فلما اكتشف بروَر اكتشافه ذاك تعاونا معاً على وضع طريقة خاصة لمعالجة المصابين بالاضطرابات العقلية سميَاها « التطهير العقلي » . وتجمل طريقتهم هذه في إماطة اللثام عن بعض الأفكار المتدثرة في أعماق الذاكرة بالاستعانة بالتنويم المغناطيسي . وبعد ما يعاد المريض الى حالة اليقظة يُذكَّر بتلك الافكار ويطلب منه ان يسرد

عنها بطلاقة دون ان يخفي شيئاً من عواطفه حيالها . وبعد ما افترق فرويد عن زميله ورفيقه وتوسعت دائرة بحثه وجد ان بعض مرضاه لا يجديهم التنويم المغناطيسي نفعاً فلم يرد بدًّا من ترك هذه الطريقة متبعاً طريقة إثارة ما مضى وما نسي من حوادث في حياة المريض . وقد توصل بهذه الطريقة إلى ابتداع طريقته المعروفة بطريقة « التفكير الحر » وهي تعد في منزلة حجر الزاوية في الأساليب الفرويدية لمعالجة المصابين بالاضطرابات العقلية والشذوذ النفسي

وفي طريقة « التفكير الحر » لا يطلب الطبيب النفسي من مريضه تركيز عقله في فكرة خاصة وانما يطلب منه ان يطلق العنان لأفكاره معبراً عن كل ما يجول بخاطره دون ما تردد أو تلجلج او كتمان ما بشيء من أفكاره او تعديل ما يسيء منها أو اهمال ما هو تافه فيها . وقد وجد فرويد ان طريقته هذه ذات تأثير تفاعلي على نتائج طريقة التنويم المغناطيسي خاصة بعد ان اضاف اليها طريقته في تحليل الأحلام منهجه في ذلك ان يطلب من المريض سرد ما شاهده في آخر رؤيا له تاركاً لمخيلته مطلق الحرية في التفكير في كل حادثة من حوادث الحلم فبالاستعانة بذلك يكشف الطبيب عما خبيء من الأفكار والتصورات التي لها علاقة مباشرة بعوارض المرض العقلي

وبالاستعانة بهاتين الطريقتين — التفكير الحر وتحليل الاحلام — وجد فرويد ان مرضاه لا يمكن ان تثار رغباتهم المكبوتة وتصوراتهم المطمورة الا بعد إجهاد والحاح شديدين . كان في أدمغتهم قوة فعالة تحول دون انشاء العقل لتلك الرغبات والتصورات . وتكون الرغبات المكبوتة ذات عامل تناسلي كما انها تكون غير مؤتلفة والمقاييس الخلقية العامة التي يضطر المريض لاتباعها في حالته السوية . فعقل الانسان ليس الا ميدان نزاع بين ما ظهر من رغباته وما خفي منها . فاذا ما ازداد الضغط العقلي على الرغبات التي يجهد الانسان نفسه لاخفائها حاولت الظهور في اشكال عادة تدعى بالاضطرابات العقلية

الرغبات التناسلية المكبوتة

وكان من أهم ما توصل اليه الدكتور فرويد اكتشافه ان المرضى الذين نجح نداءه الأمر في معالجتهم عادوا اليه ثانية وهم يشكون عوارض اضطرابات عصبية مغايرة لتلك التي كانوا يشكونها سابقاً . وتعليلاً لهذا فرض ان وراء الميول المكبوتة والرغبات المطمورة في الذاكرة لا بد ان تكون هناك أخيلة وتصورات اكثر قدماً من تلك التي سببت الاضطرابات العصبية الأولى وأبعد منها أثراً في حياة الانسان العقلية . والى هذه الأخيلة والتصورات عزا فرويد الاضطرابات العصبية الجديدة . وقد بنى اكتشافه هذا على التحقيقات التي قام بها في بعض

الحوادث التي اشار اليها مرضاه ووجد ان ليس لها نصيب من الصحة بل هي مجرد وهم وتخيل . ومن اغرب ما فاز باكتشافه هو ان تلك الاوهام والتصورات ذات الميول والاندفاعات التناسلية أثارها في نفس المريض أقرباؤه المحيطون به عندما كان طفلاً

وبعد اكتشاف فرويد لأسباب هذا الخطأ المبهم ، الحجرَ الأساسي في بناء جميع نظرياته السيكولوجية العامة ، ذلك لأن المرضى يعتقدون دائماً بصحة الأوهام والتخيلات ويعتبرونها حقائق واقعية حدثت لهم أيام كانوا أطفالاً بينما الاستقراء والبحث عما مضى في حياتهم يثبتان ان تلك الأوهام والتخيلات وليدة أحلام المرضى في ساعات يقظتهم . وما أحلام اليقظة الا الاسترسال في التفكير والتأمل في رغبات وميول يتعذر تحقيقها . فالحب الذي أخفق في حبه وحرم الفتاة التي كان يمال النفس بتزوجها تستطيب نفسه الاسترسال في تصوراته عن الفتاة فيتخيلها جالسة بقربه تبثه شوقها وغرامها . والعامل الذي تضطره ظروف الحياة لقضاء جميع أيامه منكبًّا على طلب الرزق والمعاش داخل المدن المكتظة بالسكان لا بدَّ ان تحدثهُ نفسه أحياناً بالانصراف عن هموم الحياة وأتعابها الى الاسترسال في التخيل كأنهُ وسط جنينة باسقة الشجر وارفة الظل منفجرة المياه فيها ما تشتهي الانفس وتلتذ به الاذواق ، وهذه التصورات والأخيلة التي يتوسل بها الشخص للفرار من حقائق الحياة هي ما يدعى بأحلام اليقظة

وهكذا عرف فرويد ان الاضطرابات العصبية الثانوية لا تنتج عن حوادث جرت فيما مضى من حياة المريض وكان لها تأثير سيء فيها ، وانما تنجم عن أفكار صبيانية يسترسل فيها الطفل وهو غير عالم بأنها ستجني عليه وستوقعه فريسة لاضطرابات عصبية شتى . والحادث التالي يثبت صحة ما ذهب اليه فرويد

كان فرويد وبرور زميلين حميمين يتشاركان في ابحاثها ويتعاونان معاً في معالجة مرضاهما ، وحدث مرة ان امرأة ابتليت باضطراب عصبي فالتجأت الى برور لمعالجتها ، فلما شفيت من المرض وقعت في فخ غرامه فأحبته حبًّا شديداً بلغ مرتبة الهيام . وقد جنى هذا الحب على العالم إذ أجبر برور على ترك أبحاثه النفسية منصرفاً الى مزاولة الطب ومطمئنًّا الى حب تلك المرأة . ومن غريب الاتفاق انه وقع لفرويد ما وقع لزميله فقد أحبته أيضاً احدى مريضاته العديدات بعد ان شفاها مما ألمَّ بها وكاشفت بحبها طالبة التزوج به ولكنهُ فضل البحث العلمي عن الاستسلام الى حب شهواني غير مجدٍ . وهاتان الحادثتان الغريبتان جعلت فرويد يستنتج ان معالجة المصابين بالاضطرابات العصبية تؤدي دوماً الى اثارة دوافع ورغبات تناسلية مكبوتة وهذه الدوافع المخفية والرغبات المكبوتة تسبب الاضطرابات العصبية الثانوية . وليس من علاج ناجع لهذه الاضطرابات الا بتحقيق تلك الدوافع والرغبات التناسلية بكيفية لا تتنافى والمقاييس الخلقية العامة

وكان من نتائج هذا الاكتشاف أن اتجه فرويد الى ناحية أخرى في البحث النفسي هي الاستقصاء عن القوى المسببة للكبت اللاشعوري في الدماغ . فقد أورد في كتابه « العلاج النفسي والحياة العامة » و « سرعة الخاطر واللاشعور » أمثلة عديدة على علاقة رغبات الانسان المكبوتة بدوافعه اللاشعورية، تلك الدوافع التي لاتختلف كثيراً عن بعض عوارض الاضطرابات النفسية . ويستدل مما كتبهُ فرويد على أن القوى العقلية الحائلة دون ظهور ميول الانسان وبروز رغباته التي لا تأتلف والحياة العامة ليست شديدة التأثير في المصابين بالاضطرابات النفسية فحسب بل قوية التأثير في الذين يعيشون عيشة سوية رصينة . ومما هو جدير بالذكر ان الاختلاف بين الانسان السوي وذاك الذي أصيب باضطراب نفسي ليس ناجم عن وجود تضارب وتعاكس في قواه العقلية ولكنهُ ناتج عن مبلغ تأثير هذا التضارب في تفكيره وعن مقدار نشاط العقل على ذلك التضارب

وتعد نظريات فرويد عن الطبيعة البشرية ثورة على ما تقدم من نظريات علم النفس وما زالت حتى الآن موضع خلاف بين المشتغلين بعلم النفس . ومهما يُقَلْ عن منزلة هذه النظريات فان النتائج التي توصل اليها فرويد غيرت من معالم علم النفس وزعزعت عقائد كثيرين في الظواهر العقلية

التحليل النفسي

والتحليل النفسي كنظرية عامة للطبيعة البشرية وللتكوين العقلي من أعقد أبحاث علم النفس ومن أصعبها فهماً خاصة على الذين تنقصهم معرفة الحقائق العلمية . ومما زاد في تعقيد البحث والاستقصاء ، اختلاف وجهات البحاث في وضعهم المصطلحات اللازمة ولولا فرويد ومن تبعهُ من العلماء الذين أفاضوا في شرح ما وضع من المصطلحات لبقي الارتباك سائداً ولظل الابهام مخيماً على هذه الناحية المهمة من نواحي علم النفس ، ومع كل ذلك فان معاني بعض المصطلحات ما زالت تتداخل بعضها في بعض تداخلاً يزيد في ابهامها ويقلل من رغبة المطالعين في تفهم معانيها . وتوضيحاً للبحث ستقلل من استعمال المصطلحات التي وضع بعضها فرويد وأتباعهُ خاصة ومنها تلك التي لم يتم الاتفاق عليها بعد أو التي تتداخل معانيها مع غيرها في المصطلحات

ولنبدأ بحثنا عن التحليل النفسي بتحليل مثال بسيط مستمد من الحياة العامة ومبني لعمل عقلي شعوري بسيط لنفرض أن قلمي في الساعة التي جلست فيها لكتابة هذا البحث جف حبره فاللحظة التي أدرك فيها ذلك يتولاني انزعاج وتذمر فأضطر الى التوقف عن الكتابة تاركاً محلي ومفتشاً عن زجاجة الحبر . ولن اطمئن عالم أملأ قلمي بالحبر ثانية وأتابع كتابتي وفي حالة عدم عثوري على زجاجة الحبر في المحل الذي أتوقع وجودها فيه يتضاعف انزعاجي ويزداد تذمري حتى وان بقيت مستمرّ في التفتيش عنها ، ويتكاثر الانزعاج كلما طال زمن

التفتيش . اما ان أمعنا النظر فيما اعتراني خلال هذه الفترة من الزمن وحللنا كل جزء من اجزاء الاعمال العقلية التي قمت بها وجدنا اني عرفت أولاً أن انقلم نضب حبره فشعرت بانزعاج من جراء ذلك ثم تولاني دافع نفسي للتفتيش عن الحبر

هذه المظاهر الثلاثة من مظاهر العمل العقلي يدعوها علماء النفس بالادراك والوجدان والنزوع . فالادراك يشتمل على جميع أنواع المعرفة سواء أكان ذلك عن أشياء حدثت الآن كالادراك الحسي للورق الذي اكتب عليه او عن أشياء سبق وقوعها وتذكرتها الآن او عن تصورات وتخيلات أثارها في نفسي نضوب الحبر . ومعنى الوجدان في علم النفس يختلف عن معناه في الكلام الدارج فهو في علم النفس يشير الى حالة نفسية ، سارّة او مزعجة ، تعتري الانسان من جراء احساس او نتيجة لعمل انفعالي يأتيه . فعندما نقول في دارج الكلام «اني أشعر بالبرد» نقولي هذا لا ينطوي على شعوري بالبرد فقط بل على ادراكي له ايضاً ، لأني أتأثر في الاحساس بالبرد الذي يكون مفعوله في السطح الخارجي من جلدي ثم أدرك ان البرد أثر فيّ . أما المعنى الحقيقي للوجدان فيقتصر على تأثرنا النفسي من ذلك الاحساس سواء كان احساساً مستطاباً أم غير مستطاب . هذا وليس التمييز بين النزوع والوجدان أو بينهُ وبين الادراك بالأمر اليسير ، ولكي نتفهم المعنى الحقيقي للوجدان لا نرى بدًّا من الرجوع الى مثالنا السابق نستمد منهُ مادتنا . فعندما عرفت ان الحبر جف في قلمي تولتني حالة نفسية عبرنا عنها بالانزعاج وهذه الحالة النفسية اثارت في نفسي دافع البحث عن زجاجة الحبر، وقد ظهر هذا الدافع بشكل سلوك جسمي هو الانفعال والتفتيش عن الحبر. فالدافع النفسي الذي اضطرني للتفتيش عن زجاجة الحبر هو ما يدعوه السيكولوجيون بالنزوع. ومما تجب ملاحظتهُ في هذا الصدد ان النزوع لا يشتمل على الاعمال الجسدية أو الحركات الجسمية ، وانما يقتصر على الفعاليات العقلية التي تدعم تلك الاعمال وتؤدي الى تلك الحركات وتسيرها نحو وجهة ترضي نفس الانسان

وعلى الغالب تكون الفعاليات النزوعية على أشدها عند ما تكون الفعاليات الجسمية على أقلها. والمثال الثاني يظهر ذلك بوضوح وجلاء . لنفرض أن مريضاً أقعده السقم في فراشه ومنعه اضطراره عن القيام بحركة ما ، مهما تكن بسيطة فيظل هذا المريض وهو طريح الفراش يفكر في تلك الساعة التي سيجيز له فيها الطبيب مفارقة الفراش . فهذا المريض وان ظل جسمه قليل الفعالية الاّ أن عقليته ستكون على اشد فعاليتها . . . والمفكر الذي يخلد الى كرسي راحته مستلقياً على قفاه ومفكراً في حل معضلة من معضلاته الكثيرات يصبحنا صورة صحيحة للفعالية النزوعية عندما تكون في أشد حالاتها وعندما تكون الفعالية الجسمية على غاية من القلة والسكون

والنزوع يلازم الحياة العقلية ملازمة الظل لظليله فعندما نتحدث عن رغباتنا أو ميولنا أو

دوافعنا قائما فيما نعبر عن المظهر النزوعي من حياتنا العقلية . وما التحليل النفسي بمعناه الخاص الا دراسة هذا المظهر من الحياة العقلية . والنزوع صفتان مهمتان أولاهما ان النزوع يرمي الى غاية معينة ولن ينتهي الا بتحقيق تلك الغاية . فاني ما ان أجد زجاجة الحبر مثلاً ، تنتهي رغبتي في البحث عنها ، والصفة الاخرى أن النزوع يكون مرضياً عند ما يجد الانسان ضالته فان لم يجده شعر بالحزن والألم يحزان في قلبه . وليسمح القارىء لنفسه بالتفكير في احدى رغباته التي لا تسمح الظروف بتنفيذها ولا يجوز العرف تحقيقها . فانه ما ان يسترسل بذلك حتى يتولاه شعور بالحسرة واحساس بالألم المضني

وهناك مظهر آخر من مظاهر الحياة العقلية لا يقل منزلة عن المظاهر الثلاثة المتقدمة الذكر . لنفرض ان شخصاً أساء اليَّ في يوم من الأيام فاني ما ان افكر فيه حتى يتولاني شعور الكره والعداء نحوه ، ويستمر بي هذا الشعور حتى في تلك الساعات التي لا يمر ذكره ببالي وبعبارة أخرى ان كرهي لذلك الشخص هو صفة خاصة بي أوجدتها حالة خاصة طرأت عليَّ وتقوم هذه الصفة بتحديد نوع ميولي نحو شخص أساء اليَّ دون ان يكون ذلك التحديد شعورياً ، وهكذا فان كرهي لذلك الشخص وحقدي عليه هما صفة عقلية محضة ليس لها علاقة بصفاتي الجسدية كلون شعري ولون قزحية عيني أو غيرهما من الصفات الجسدية الأخرى . ويستدل من هذا على ان هناك عوامل فعالة في الحياة العقلية تعين الفعاليات الشعورية دون أن تكون عرضة للتأمل الباطني كما هو الحال في الفعاليات الشعورية ، وتدعى هذه العوامل بالاستعداد أو الميل الفطري . ولا بد من التفريق بين هذه الميول الفطرية وبين الشعور نحو من نكرههم ونحقد قلوبنا عليهم . فالشعور بالكره او الحقد حادث عقلي يتغير ويتحول وربما يزول فلا يترك له أثراً . أما الاستعداد أو الميل الفطري فيظل ملازماً الانسان طوال حياته . وهو وان لم يكن طارئاً الا انه يتوسل بالطوارىء العقلية للتعبير عنه

ويعرف الاستعداد بالاستمرار العقلي ، وتكون بعض أنواعه موروثة وبعضها مكتسبة . فالشعور بالكره استعداد مكتسب أما الانتفات نحو الأجسام المتحركة فاستعداد فطري لان الناس يتصفون به على اختلاف أعمارهم . وبالاستعداد سواء أفطرياً كان أم مكتسباً ، مظهران أحدهما ادراكي والآخر نزوعي . فالطفل لا يتأثر بالأصوات العالية فحسب بل يشعر بالفزع وبلزوم الابتعاد عنها . وعند ما تجتمع استعدادات الانسان تكون « بناءه العقلي » ذلك البناء الذي ينمو ويتعاظم فيكسب الانسان عواطفه المختلفة

لقد أوضحنا الكثير من نواحي حياتنا العقلية دون أن نتطرق الى تعريف التحليل النفسي كنظرية للطبيعة البشرية ، وقد آن الأوان لتعريفه تعريفاً شاملاً ما نعاً . ان التحليل النفسي نظرية تبحث عن طبيعة الاستعدادات العقلية الفطرية وعن كيفية تكون الخلق الانساني من هذه الاستعدادات

(البحث تتمة في العدد القادم)